السُّموُّ الرُّوحيُّ الأعظم

والجمالُ الفنيُّ في البلاغة النَّبويَّة[(١)][(٢)]

لمَّا أردتُ أن أكتبَ هذا الفصل ، وهممتُ به ؛ عرضتْ لي مسألةٌ ، نظرتُ فيها ، أطلبُ جوابها ، ثُمَّ قدَّرتُ أن يكونَ أبلغ فلاسفة البيان في أوربة لعهدنا هذا رجلاً يحسن العربية المبينة ، وقد بلغ فيها مبلغ أئمَّتها علماً ، وذوقاً ، ودرسَ تاريخ النَّبيِّ ﷺ درس الرُّوح لأعمال الرُّوح ، وتفقَّه في شريعته فقه الحكمة لأسرار الحكمة ، واستوعب أحاديثه ، واعتبرها بفنِّ النقد البيانيِّ الذي يبحث في خصائص الكلام عن خصائص النَّفس ، وتمثَّلتُ أنِّي لقيتُ هذا الرَّجل ، فسألته : ما هو الجمال الفنيُّ عندك في بلاغة محمد ﷺ ؟ وماذا تستخرج لك فلسفة البيان منه ؟ وما سرُّه الذي يجتمع فيه ؟

ولم يكد يخطر لي ذلك ؛ حتَّى انكشف الخاطر عن وجهٍ آخر ، وذلك أن يكون معنى هذا السُّؤال بعينه قد وقع في شيءٍ من حديث النَّفس لأبلغ أولئك العرب الذين رأوا النَّبيَّ ﷺ ، وآمنوا به ، واتَّبعوا النُّور الذي أُنزل معه ، وقد صحبه ، فطالت صحبته ، لا يفوته من كلامه في الملأ شيءٌ ، وخالطه حتَّى كان له في الإحاطة بأحوال نفسه كبعض التَّاريخ ، فتدبر ما عسى أن يكون سرُّ الجمال في بلاغته ﷺ ، وما مرجعه الذي يردُّ إليه .

لو دار السؤالُ دورتيه في هذه السليقة العربية المحكمة التي رجعت أن تكون فلسفة تشعر وتحسُّ ، وفي تلك الفلسفة البيانية الملهمة التي بلغت أن تكون سليقة تدرس وتفكر ـ لما خلص من كلتيهما إلا برأيٍ واحد تلتقي عليه حقيقة البيان من طرفيها : وهو أن ذلك الجمال الفني في بلاغته ﷺ إنما هو أثرٌ على الكلام من روحه

---

(١) أنشأ المؤلف ـ رحمه الله ـ هذا البحث جواباً لرجاء جمعية الهداية الإسلاميَّة في بغداد سنة ١٣٥٢هـ ؛ وانظر : « فترة جمام » من كتابنا : « حياة الرافعي » . (س) .

(٢) بسطنا الكلام في كتابنا « إعجاز القرآن » عن بلاغة النَّبيِّ ﷺ من وجوهٍ كثيرة ، وبقي هذا المعنى الذي تراه ، فهذه المقالةُ كالتَّكْملة على ما هناك . (ع) .

النبوية الجديدة على الدنيا وتاريخها .

وبعد ؛ فأنا في هذه الصفحات لا أصنع شيئاً غيرَ تفصيل هذا الجواب وشرحه باستخراج معانيه ، واستنباط أدلَّته ، والكشف عن أسراره وحقائقه ؛ ولقد درستُ كلامه ﷺ ، وقضيتُ في ذلك أياماً أتتبَّع السِّرَّ الذي وقع في التاريخ القفر المجدب فأخصب به ، وأنبت للدنيا أزهاره الإنسانية الجميلة ، فكانوا ناساً إن عِبتهم بشيء لم تعبهم إلا أنهم دون الملائكة ، وكانوا ناساً دارتِ الكرةُ الأرضيةُ في عهدهم ثلاثَ دورات : واحدة حول الشمس ، وثانية حول نفسها ، وثالثة حول أصحاب النبي ﷺ .

ثم تركتُ الكلامَ النبويَّ يتكلم في نفسي ، ويلهمني ما أفصحُ به عنه ، فلكأني به يقولُ في صفة نفسه : إني أصنعُ أمَّةً لها تاريخُ الأرض من بعد ، فأنا أقبل من هنا وهناك ، وأذهب هناك وهنا ؛ مع القلوب والأنفس والحقائق ، لا مع الكلام والناس والوقت .

إن ها هنا دنيا الصحراء ستلد الدنيا المتحضرة التي من ذرِّيَّتها أوربة وأمريكة ، فالقرآنُ والحديثُ يعملان في حياة أهل الأرض بنور متمِّمٍ لما يعمله نورُ الشمس والقمر .

وقد كان المسلمون يغزون الدُّنيا بأسلحةٍ هي في ظاهرها أسلحة المقاتلين ، ولكنَّها في معانيها أسلحة الأطبَّاء ، وكانوا يحملون الكتاب ، والسُّنَّة ، ثُمَّ مضَوا إلى سبيلهم ، وبقي الكلام من بعدهم غازياً محارباً في العالم كلِّه حربَ تغييرٍ وتحويلٍ إلى أن يدخل الإسلام على ما دخل عليه اللَّيل[1] .

هذا منطقُ الحديث في نفسي ، وقد كنت أقرؤه وأنا أتمثَّله مرسلاً بتلك الفصاحة العالية من فم النَّبيِّ ﷺ ، حيث يمرُّ إعجاز الوحي أوَّل ما يخرج به الصَّوتُ البشريُّ إلى العالم ، فلا أرى ثَمَّ إلا أنَّ شيئاً إلهيّاً عظيماً متَّصِلاً بروح الكون كلِّه اتِّصال بعضِ السِّرِّ ببعض السِّرِّ ، يتكلَّم بكلامٍ إنسانيٍّ ، هو هذا الحديث الَّذي يجيء

(١) في الحديث الشَّريف : « ليدخلنَّ هذا الدِّين على ما دخل عليه اللَّيل » . وكأنَّ العبارة نصٌّ على أنَّ الإسلام يعمُّ حين تظلم الدُّنيا ظلامها الشِّعري . . . إذا طمست الإنسانية بلذَّاتها ، وأظلمت آفاقها الرُّوحانيَّة ؛ فيجيء الإسلام في قوَّة أخلاقه كشباب الفجر ، يبعث حياة النُّور الإنسانيِّ بعثاً جديداً ، وهذا هو رأيُنا في مستقبل الإسلام : لا بُدَّ من انحلال أوربة ، وأمريكة ، كما يصفرُّ النَّهار . ثمَّ يختلطُ ، ثمَّ يُظلمُ ، ثمَّ تَطلبُ الطبيعة نورَها الحيَّ من بعد . (ع) .

في كلماتٍ قويَّةٍ رائعةٍ ، فنُّها في بلاغتها كالشَّبابِ الدَّائم .

كنت أتَأمَّله قطعاً من البيان ، فأراه ينقلني إلى مثل الحالة التي أتأمَّل فيها روضةً تتنفَّس على القلب ، أو منظراً يهزُّ جماله النَّفس ، أو عاطفةً تزيد بها الحياة في الدَّم ، على هدوءٍ ، ورَوحٍ ، وإحساسٍ ، ولذَّةٍ ، ثُمَّ يزيد على ذلك : أنَّه يُصلح من الجهات الإنسانيَّة في نفسي ، ثمَّ يرزق الله منه رزق النُّور ، فإذا أنا في ذوق البيان كأنَّما أرى المتكلِّم ﷺ وراءَ كلامه .

وأعجب من ذلك أنِّي كثيراً ما أقف عند الحديث الدَّقيق أتعرَّف أسراره ، فإذا هو يشرح لي ، ويهديني بهديه ، ثمَّ أحسُّه كأنَّما يقول لي ما يقول المعلم لتلميذه : أفهمت ؟

وقفتُ عند قوله ﷺ : « إنَّ قوماً ركبوا في سفينةٍ ، فاقتسموا ، فصار لكلِّ رجلٍ منهم موضعٌ ، فنقل رجلٌ منهم موضعه بفأسٍ ، فقالوا له : ما تصنع ؟ قال : هو مكاني أصنع فيه ما شئت ! فإن أخذوا على يدهِ ؛ نجا ، ونجَوا ، وإن تركوه ؛ هلك وهلكوا »[1] .

فكان لهذا الحديث في نفسي كلامٌ طويلٌ عن هؤلاء الَّذين يخوضون معنا البحر ، ويسمُّون أنفسهم بالمجدِّدين ، وينتحلون ضروباً من الأوصاف : كحرِّيَّةِ

---

(١) روى البخاريُّ هذا الحديث على وجهٍ آخر ، وفيه زيادة من الجمال الفنيِّ ؛ قال : « مثلُ القائمِ علىٰ حدودِ اللهِ والواقع فيها ؛ كمثلِ قومٍ استهموا علىٰ سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها ، وبعضهم أسفلها ؛ فكان الَّذين في أسفلها إذا استقَوا من الماء ؛ مرُّوا علىٰ مَنْ فوقهم ، فقالوا : لو أنَّا خرقنا في نصيبنا خرقاً ، ولم نُؤذِ مَنْ فوقنا ! فإن تركوهم وما أرادوا ؛ هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم ؛ نجَوا ، ونجَوا جميعاً » .

فهذا تمثيلٌ لحالة طائفةٍ في (الأسفل) تعمل لرحمة مَنْ هُمْ في (الأعلىٰ) : عاطفةٌ شريفةٌ ولكنَّها سافلةٌ ، وحميَّةٌ ملتهبةٌ ، ولكنَّها باردةٌ ، ورحمةٌ خالصةٌ ، ولكنَّها مهلكةٌ ؛ ولن تجد كهذا التمثيل في تصوير البلادة الاجتماعية ، والغفلة الفلسفيَّة لأناسٍ هم عند أنفسهم أمثلة الجدِّ والعمل ، والحكمة ، فكأنَّ النَّبيَّ ﷺ يقول لهؤلاء من ألف وثلاثمئة سنة : أنتم المصلحون إصلاحاً مخروقاً . . ! (ع) .

قلت : الحديث رواه البخاري (٢٤٩٣)، والترمذي (٢١٧٣) . « استهموا » : اقترعوا .

الفكر ، والغيرة ، والإصلاح ؛ ولا يزالُ أحدُهم ينقرُ موضعه من سفينة ديننا ، وأخلاقنا ، وآدابنا بفأسه ؛ أي : بقلمه . . . زاعماً أنَّه موضعه من الحياة الاجتماعية يصنع فيه ما يشاءُ ، ويتولاه كيف أراد ، موجِّهاً لحماقته وجوهاً من المعاذير والحجج ، من المدنيَّة والفلسفة ، جاهلاً أنَّ القانون في السَّفينة إنَّما هو قانون العاقبة دون غيرها ، فالحكم لا يكون على العمل بعد وقوعه كما يُحكم على الأعمال الأخرى ، بل قبل وقوعه ، والعقاب لا يكون على الجرم يقترفه المجرم كما يعاقب اللِّصُّ ، والقاتل ، وغيرهما ، بل على الشُّروع فيه ، بل على توجُّه النِّيَّةِ إليه ؛ فلا حرِّيَّة هنا في عملٍ يفسد خشب السَّفينة ، أو يمسَّه من قُربٍ أو بُعدٍ ؛ ما دامت ملجَّجةً[1] في بحرها ، سائرةً إلى غايتها ؛ إذ كلمة (الخرق) لا تحمل في السَّفينة معناها الأرضيَّ ، وهناك لفظة : (أصغر خرقٍ) ليس لها إلا معنى ، وهو : (أوسع قبرٍ) .

ففكِّر في أعظم فلاسفة الدُّنيا مهما يكن من حرِّيته ، وانطلاقه ، فهو ها هنا محدودٌ على رغم أنفه بحدودٍ من الخشب ، والحديد ، تفسيرها في لغة البحر حدود الحياة ، والمصلحة ، وكما أنَّ لفظة (الخرق) يكون من معانيها في البحر : القبر ، والغرق ، والهلاك ، فكلمة (الفلسفة) يكون من بعض معانيها في الاجتماع : الحماقة ، والغفلة ، والبلاهة ، وكلمة الحرِّيَّة يكون من معانيها : الجناية ، والزَّيغ ، والفساد[2] ، وعلى هذا القياس اللُّغويِّ فالقلم في أيدي بعض الكتَّاب من

---

(١) « ملجَّجة » : تمخر عُباب البحر مُصرَّةً على السَّير .

(٢) الزائغون في التاريخ الإسلامي كلِّه صنفان ، ليس لهما ثالثٌ ، وقد وصفهما الحديث الذي رواه البخاري بسنده إلى حذيفة بن اليمان ، قال : كان النَّاس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير ؛ وكنت أسأله عن الشَّرِّ مخافةَ أن يدركني ، فقلت : يا رسول الله ! إنَّا كنَّا في جاهليَّةٍ وشرٍّ ، فجاءنا الله بهذا الخير ، فهل بعدَ الخير من شرٍّ ؟ قال : « نعم » قلت : وهل بعد الشَّرِّ من خيرٍ ؟ قال : « نعم ، وفيه دخنٌ » قلت : وما دخنه ؟ قال : « قومٌ يهدون بغير هديي ، تعرف منهم ، وتنكر » قلت : فهل بعد ذلك الخير من شرٍّ ؟ قال : « نعم ، دُعاةٌ إلى أبواب جهنَّم ، من أجابهم إليها قذفوه فيها » قلت : يا رسول الله ! صفهم لي . قال : « هم من جِلدتنا ، ويتكلَّمون بألسنتنا » . قلت : يا رسول الله ! فما تأمرني ؛ إن أدركني ذلك ؟ قال : « تلزم جماعة المسلمين وإمامهم » قلت : فإن لم تكن لهم جماعةٌ ، ولا إمامٌ ؟ قال : « فاعتزل تلك الفرق كلَّها ، ولو أن تعض=

معانيه الفأسُ ، والكاتب من معانيه : المخرِّب ، والكتابة من معانيها : الخيانة ؛ قال لي الحديث : أفهمت؟

هكذا يجب تأمُّل الجمال الفنِّيِّ في كلامه ﷺ ، فهو كلامٌ كلَّما زدته فكراً ، زادك معنىً ، وتفسيره قريبٌ قريبٌ كالرُّوح في جسمها البشريِّ ، ولكنَّه بعيدٌ بعيدٌ كالرُّوح في سرِّها الإلهي ، فهو معك على قدر ما أنت معه ، إن وقفت على حدٍّ ؛ وقف ، وإن مددت ؛ مدَّ ، وما أدَّيت به تأدَّى ، وليس فيه شيءٌ ممَّا تراه لكلِّ بلغاء الدُّنيا من صناعة عبث القول ، وطريقة تأليف الكلام ، واستخراج وَضْع من وَضْع ، والقيام على الكلمة حتَّى تَبيض كلمةٌ أخرى . . . ، والرَّغبةُ في تكثير سواد المعاني ، وترك اللِّسان يطيش طيشه اللُّغويَّ يتعلَّق بكلِّ ما عرض له ، ويحذو الكلام على معاني ألفاظه ، ويجتلب له منها ، ويستكرهها على أغراضه ؛ ويطلب لصناعته من حيث أدرك ، وعجز ، ومن حيث كان ، ولم يكن ، إنَّما هو كلامٌ قيل ؛ لتصير به المعاني إلى حقائقها ، فهو من لسانٍ وراءه قلبٌ ، ووراءه نورٌ ، ووراءه الله جلَّ جلاله . وهو كلامٌ في مجموعه كأنَّه دنيا أصدرها ﷺ عن نفسه العظيمة ، لا تبرح ماضيةً في طريقها السَّويِّ على دين الفطرة ، فلا تتَّسع لخلافٍ ، ولا يقع بها التَّنافر ، والخلاف والتَّنافر إنَّما يكونان من الحيوانيَّة المختلفة

= بأصل شجرةٍ حتى يدركك الموت وأنت على ذلك » . انتهى الحديث .

فتأمَّل قوله : « يهدون بغير هديي . . . تعرف منهم وتنكر » ؛ فهؤلاء هم الذين يريدون الإصلاح للمسلمين لا من طريق الإسلام بل من طرقٍ أخرى ، فيها معروفها ، ومنكرها ، وفيها علمها ، وجهلها ، وفيها عقلها ، وحماقتها ، ولعلَّ من هذا قولهم : المدنية الأوربية بحسناتها وسيِّئاتها . . . وتأمَّل قوله : « إلى أبواب جهنَّم » فليست الدَّعوة إلى بابٍ واحدٍ بل إلى أبوابٍ مختلفةٍ ، لعلَّ آخر ما فَتحوا منها باب الأدب المكشوف . . .

ثم تأمَّل قوله ﷺ : « ولو أن تعض بأصل شجرةٍ » فإنَّ معناه الاستمساك بما بقي على الطَّبيعة السليمة مما لا يستطيع أولئك أن يغيِّروه ، ولا أن يجدِّدوه ، أي بالاستمساك ، ولو بأصلٍ واحدٍ من قديم الفضيلة والإيمان ، وعبارة العضِّ بأصل شجرةٍ تمثِّل أبدع ، وأبلغ وصفٍ لمن يلزم أصول الفضائل في هذا الزمن ، ومبلغ ما يعانيه في التمسُّك بفضيلته ، وهي وحدها فنٌّ كأجمل ما يبدعه مصوِّرٌ عبقريٌّ . (ع) .

قلت : الحديث رواه البخاري (٧٠٨٤) ومسلم (١٨٤٧) .

بطبيعتها ، لقيامها على قانون التَّنازع ، تعدو به ، وتجترم[(١)] ، وتأثم ، فهي نازلةٌ إلى الشَّرِّ ، والشَّرُّ بعضه أسفل من بعضٍ ، أمَّا روحانيَّة الفطرة ؛ فمتَّسقةٌ بطبيعتها ، لا تقبل في ذاتها افتراقاً ، ولا اختلافاً ؛ إذ كان أوَّلها العلوَّ فوق الذَّاتية ، وقانونها التَّعاون على البرِّ ، والتَّقوى ، فهي صاعدةٌ إلى الخير ، والخير بعضه أعلى من بعض .

فكلامه ﷺ يجري مجرى عمله : كلُّه دينٌ ، وتقوى ، وتعليمٌ ، وكلُّه روحانيَّةٌ ، وقوَّةٌ ، وحياةٌ ، وإنَّه يخيَّل إليَّ ـ وقد أخذت بطهره وجماله ـ أنَّ من الفنِّ العجيب أن يكون هذا الكلام صلاةً ، وصياماً في الألفاظ .

أمَّا أسلوبه ﷺ ؛ فأجد له في نفسي روح الشَّريعة ونظامها ، وعزيمتها ، فليس له إلا قوَّةٌ ، قوَّةُ أمرٍ نافذٍ لا يتخلَّف ، وإنَّ له مع ذلك نسقاً هادئاً هدوء اليقين ، مبيَّناً بيان الحكمة ، خالصاً خلوص السِّرِّ ، واقعاً من النَّفس المؤمنة موقع النِّعمة من شاكرها ، وكيف لا يكون كذلك وهو أمر الرُّوح العظيمة الموجَّهة بكلمات ربِّها ، ووحيه ، ليتوجَّه بها العالم كأنَّه منه مكان المحور ، دورته بنفسه هي دورته بنفسه ، وبما حوله ، روح نبيٍّ مصلحٍ رحيمٍ ، هو بإصلاحه ورحمته في الإنسانيَّة ، وهو بالنُّبوَّة فوقها ، وهو بهذه وتلك في شمائله ، وطباعه مجموعٌ إنسانيٌّ عظيم ، لو شُبِّه بشيء ؛ لقيل فيه : إنه كمجموع القارَّات الخمس لعمران الدُّنيا .

ومن درس تاريخه ﷺ ، وأعطاه حقَّه من النَّظر ، والفكر ، والتَّحقيق ؛ رأى نسقاً من التَّاريخ العجيب كنظامِ فلكٍ من الأفلاك موجَّهٍ بالنُّور في النُّور من حيث يبدأ إلى حيث ينتهي ، فليس يمتري[(٢)] عاقلٌ مميِّزٌ أنَّ هذه الحياة الشَّريفة ـ بذلك النِّظام الدَّقيق ، في ذلك التوجُّه المحكم ـ لا يطيقها بشرٌ من لحمٍ ، ودمٍ على نفوس الحياة إلا إذا كان في لحمه ، ودمه معنى النُّور ، والكهرباء على ناموسٍ أقوى من الحياة .

ولم يكن مِثْلُه ﷺ في الصَّبر ، والثَّبات ، واستقرار النَّفس ، واطمئنانها على زلازل الدُّنيا ، ولا في الرَّحمة ، ورقَّة القلب ، والسُّموِّ فوق معاني البقاء الأرضيِّ ، فهو قد خُلق كذلك ؛ ليغلب الحوادث ، ويتسلَّط على المادَّة ، فلا يكون شأنه شأن غيره من النَّاس : تدفنهم معاني التُّراب وهم أحياء فوق التُّراب ، أو يحدُّهم الجسم

(١) « تجترم » : ترتكب الجريمة .

(٢) « يمتري » : يشكُّ .

الإنساني من جميع جهاتهم بحدود طباعه ، ونزعاته ، وبذلك فقد كان عليه الصَّلاة والسَّلام منبع تاريخٍ في الإنسانيَّة كلِّها دائماً ، ولرأس الدُّنيا نظام أفكاره الصَّحيحة .

* * *

عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « انطلق ثلاثة رهطٍ ممَّن كان قبلكم حتَّى أوَوْا المبيت إلى غارٍ، فدخلوه، فانحدرت صخرةٌ من الجبل ، فسدَّت عليهم الغار ، فقالوا : إنَّه لا يُنجيكم من هذه الصَّخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم ! فقال رجلٌ منهم : اللهمَّ ! كان لي أبوان شيخان كبيران ، وكنت لا أغبق قبلهما أهلاً ، ولا مالاً[١] فنأى بي في طلب شيءٍ يوماً فلم أُرِح عليهما حتَّى ناما، فحلبت لهما غبوقهما[٢] ، فوجدتهما نائِمَيْنِ ، فكرهت أن أغبق قبلهما أهلاً ، أو مالاً ، فلبثت والقدح على يديَّ أنتظر استيقاظهما حتَّى برِق الفجر ، فاستيقظا ، فشربا غبوقهما . اللهمَّ ! إن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك ؛ ففرِّج عنَّا ما نحن فيه من هذه الصَّخرة ! فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج » .

قال النَّبيُّ ﷺ : « وقال الآخر : اللَّهمَّ ! كانت لي بنت عمٍّ كانت أحبَّ النَّاس إليَّ ، فأردتها عن نفسها ، فامتنعت منِّي ، حتَّى ألَمَّتْ بها سنةٌ من السِّنين[٣] فجاءَتْني ، فأعطيتها عشرين ومئة دينار على أن تخلِّيَ بيني وبين نفسها ، ففعلت ، حتى إذا قدرتُ عليها قالت : لا أحلُّ لك أن تفضَّ الخاتم إلا بحقِّه ! فتحرَّجتُ من الوقوع عليها ، فانصرفتُ عنها ، وهي أحبُّ النَّاس إليَّ ، وتركت الذَّهب الذي أعطيتُها . اللهُمَّ ! إن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك ؛ فافرُجْ عنَّا ما نحن فيه ! فانفرجت الصَّخرة غير أنَّهم لا يستطيعون الخروج منها » .

قال النَّبيُّ ﷺ : « وقال الثَّالث : اللَّهمَّ ! إنِّي استأجرت أُجَراءَ ، فأعطيتهم أجرهم غير رجلٍ واحدٍ ترك الَّذي له ، وذهب ، فثمَّرت أجره حتَّى كثرت منه الأموال ، فجاءَني بعد حينٍ ، فقال : يا عبد الله ! أدِّ إليَّ أجري ، فقلت له : كلُّ ما ترى من أجرك : من الإبل ، والبقر ، والغنم ، والرَّقيق ! فقال : يا عبد الله !

---

(١) أي : لا يسقي الغبوق أحداً من أهله أو جماعته قبلهما . (ع) .
(٢) « غبوقهما » : الغبوق : ما يحلب بالعشيِّ ، ويشرب ، ويقابله : الصَّبوح .
(٣) « سنة » : جدبٌ ، وفقر . (ع) .

لا تستهزئ بي ! فقلت : إنّي لا أستهزئ بك ! فأخذه كلَّه ، فاستاقه ، فلم يترك لي شيْئاً . اللهمَّ ! فإن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ؛ فافرج عنّا ما نحن فيه ! فانفرجت الصَّخرة ، فخرجوا يمشون[(١)] » . انتهى الحديث .

وأنا فلست أدري ، أهذا هو النَّبيُّ ﷺ يتكلَّم في الإنسانيَّة وحقوقها بكلامٍ بيِّنٍ صريحٍ لا فلسفة فيه ، يجعل ما بين الإنسان والإنسان من النِّيَّة هو ما بين الإنسان وربِّه من الدِّين ؟ أم هي الإنسانيَّة تنطق على لسانه بهذا البيان العالي ، في شعرٍ من شعرها ضاربةً فيه الأمثال ، مشيرةً فيه إلى الرُّموز ، واضعةً إنسانها بين شدَّة الطَّبيعة ، ورحمة الله ، محكِمةً عناصرَ روايتها الشِّعريَّة ، محقِّقةً في بيانها المكشوف أغمض معانيها في فلسفة الحاسَّة الإنسانيَّة حين تتَّصل بأشيائِها ، فتظهر الضَّرورة البشريَّة ، وتختفي الحكمة ، وفلسفة الرُّوح حين تتَّصل بهذه الأشياء ذاتها ، فتظهر الحكمة ، وتختفي الضَّرورة ـ مبيِّنةً أثر هذه وتلك في طبيعة الكون ، مقرِّرةً أنَّ الحقيقة الإنسانيَّة العالية لن تكون فيما ينال الإنسان من لذَّته ، ولا فيما ينجح من أغراضه ، ولا فيما يقنعه من منطقه ، ولا فيما يلوح من خياله ، ولا فيما ينتظم من قوانينه ، بل هي السُّموُّ على هذه الحقائق الكاذبة كلِّها ، وهي الرَّحمة الَّتي تغلب على الأثرة ، فيسمِّيها النَّاس برّاً ، والرَّحمة الَّتي تغلب على الشَّهوة ، فيسمِّيها النَّاس عِفَّةً ، والرَّحمة الَّتي تغلبُ على الطَّمَع ، فيسمِّيها النَّاس أمانةً ؛ وهي في ضبط الرُّوح لثلاثٍ من الحواسِّ : حاسَّة الدَّعوة الَّتي يقوم بها حظُّ الخمول ، وحاسَّة اللَّذَّة الَّتي يقوم بها حظُّ الهوى ، وحاسَّة التملُّكِ الَّتي يقوم بها حظُّ القوَّة .

وتزيد الإنسانيَّة على ذلك في نسقِ شِعرها أنَّها تثبت أنَّ البرَّ من العفَّة والأمانة هو على إطلاقه كالأساس لهما ، فمن نشأ على برِّ أبويه كان خليقاً أن يتحقَّق بالعفَّة ، والأمانة ، وأنَّ العفَّة من الأمانة ، والبرُّ هي مساكهما ، وجامعتهما في النَّفس ، وأنَّ الأمانة من البرِّ ، والعفَّة هي كمال هذه الفضائل . وكلُّهنَّ درجات لحقيقةٍ واحدةٍ ، غير أنَّ بعضها أسمى من بعضٍ في الشَّأن ، والمنزلة ، وبعضها طريقٌ لبعضٍ يجرُّ سببٌ منها سَبباً منها ، وأنَّ الرَّحمة الإنسانيَّة الَّتي هي وحدها الحقيقةُ الكبرى إنَّما هي هذا الحبُّ ، بادئاً من الولد لأبويه ، وهو الحبُّ الخاصُّ ، ثمَّ من المحبِّ لحبيبته ، وهو الحبُّ الأخصُّ ، ثمَّ من الإنسان للإنسانيَّة وهو الحبُّ مطلقاً

(١) رواه البخاري (٣٤٦٥) ومسلم (٢٧٤٣) .

بعمومه ، وبغير أسبابه الملجئة من الحاجة ، والغريزة ، وهي درجاتٌ كدرجات الحياة نفسها من طفولتها إلى شبابها ، إلى الشَّيخوخة ، ومن العاطفة إلى الرَّغبة ، إلى العقل .

ثمَّ إِنَّه ما دام كمال الفضيلة هو الأمانة فما قبلها أنواعٌ منها ؛ فبِرُّ الولد أمانةُ الطَّبع المتأدِّب ، وعفَّة المحبِّ أمانة القلب الكريم ، والثَّالثة أمانة الخلق العالي ، وهي الطَّبع المتأدِّب ، وعفَّةِ المحبِّ أمانة القلب الكريم ، والثَّالثة أمانة الخلق العالي ، وهي أسماهنَّ ، لأنَّها لن تكون خُلقاً ثابتاً إلا وقد خضع لقانونها الطَّبع ، والقلب ، ودخل في أسبابها الأدب ، والكرم ؛ فالأمانة الكاملة في هذه الفلسفة هي الأمانة للإنسانيَّة العامَّة المتَّصلة بالمرء من أبعد جهاته ، دون الإنسانيَّة الخاصَّة بكلِّ شخصٍ من أبٍ ، أو أمٍّ ، أو قريبٍ ، ودون الَّتي هي أخصُّ ، وهي إنسانيَّة الحبِّ .

ونرى في لفظ الحديث أنَّ كلَّ رجلٍ من هؤلاء الذين مثَّلوا رواية الإنسانيَّة الفاضلة في فصولها الثَّلاثة ، لا يقول : إنَّه فعل ما فعل من صالح أعماله إلا (ابتغاء وجه الله) ، وقد تطابقوا جميعاً على هذه الكلمة ، وهي من أدقِّ ما في فلسفة الإنسانيَّة في شعرها ذلك ، فإنَّ معناها : أنَّ الرَّجل في صالح عمله إنَّما كان مجاهداً نفسَه ، يمنعها ما تحرص عليه من حظِّها ، أو لذَّتها ، أو منفعتها ؛ أي : منخلعاً من طبيعته الأرضية المنازِعة لسواها ، المنفردة بذاتها ، متحقِّقاً بالطَّبيعة السَّماويَّة الَّتي لا يَرحَم الله عبداً إلا بها ، وهي رحمة الإنسان غيره ؛ أي اندماجه باستطاعته ، وقوَّته ، وإعطاؤه من ذات نفسه ، ومعاونتُه كفَّ أذاه .

والحديث كالنَّصِّ على أنَّ هذه الرَّحمة في النَّفس هي الدِّين عند الله ، لا يصلح دين بغيرها ، ولا يقبل الله صرفاً ولا عدلاً من نفسٍ تخلو منها ؛ وإذا كانت بهذه المنزلة ، وكانت أساسَ ما يُفرض على الإنسان من الخير والحقِّ ؛ فهي من ذلك في معنى الحديث أساس ما يُصلح هذه الإنسانيَّة من الشَّرِّ ، والباطل ؛ وبهذا كلِّه تكون الغاية الفلسفيَّة التي ينتهي إليها كلامه ﷺ : أنَّ تنشئة النَّاس على البرِّ ، والعفَّة ، والأمانة للإنسانيَّة هي وحدها الطَّريقة العمليَّة الممكنة لحلِّ معضلة الشَّرِّ والجريمة في الاجتماع البشريِّ .

وانظر كيف جعل نهاية السُّموِّ في رحمة المال الذي يصفونه بأنَّه شقيق الرُّوح ،

فكأنَّ الإنسان لا يخرج فيها لغيره من بعض ماله ، بل ينخلع من بعض روحه ؛ وهذا يقرِّر لك فلسفةً أخرى : أنَّ السَّعادة الإنسانيَّة الصَّحيحة في العطاء دون الأخذ ، وأنَّ الزَّائفة هي في الأخذ دون العطاء ؛ وذلك آخر ما انتهت إليه فلسفة الأخلاق ؛ فما المرءُ إلا ثمرةٌ تنضَج بموادِّها ، حتَّى إذا نضِجتْ ، واحلَوْلَتْ ؛ كان مظهر كمالها ، ومنفعتها في الوجود أن تهب حلاوتها ، فإذا هي أمسكت الحلاوة على نفسها ؛ لم يكن إلا هذه الحلاوةَ بعينها سببٌ في عفنها ، وفسادها من بعد . أفهمت ؟

وما دمنا قد وصفنا رحمة المال ، فإنَّا نتمُّ الكلام فيها بهذا الحديث العجيب في فنِّ تمثيله ، وبلاغة فنِّه : عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنَّه سمع رسول الله ﷺ يقول : « مَثَلُ البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جبَّتان من حديدٍ ، من ثُدِيِّهما إلى تراقيهما ، فأمَّا المنفق ؛ فلا ينفق إلا سبغتْ ، أو وَفرَتْ على جلده حتَّى تُخفي بنانه ، وتعفو أثره ، وأمَّا البخيل ؛ فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزقت كلُّ حَلْقةٍ مكانها ، فهو يوسِّعها ، فلا تتَّسع »[1] . انتهى .

فلأنت ترى ظاهر الحديث ، ولكنَّ فنَّه العجيب في هذا الحديد ؛ الذي يراد به طبيعة الخير ، والرَّحمة في الإنسان ، فهي من أشدِّ الطبائع جموداً ، وصلابةً ، واستعصاءً متى اعترضتها حظوظُ النَّفس الحريصة ، وأهواؤها ، ومع ذلك فإنَّ السَّخاء بالمال يبسط منها ، وينتهي في الطَّبع إلى أن يجعلها ليِّنةً ، فلا تزال تمتدُّ ، وتسبُغ حتَّى يكون كمال طبع السَّخاء ، وهو كمال طبع الخير في النَّفس الكريمة . فمن ألزم نفسه الجود ، والإنفاق راضها رياضة عمليَّةً كرياضة العضل بأثقال الحديد ، ومعاناة القوَّة في الصِّراع ، ونحوه ؛ أمَّا الشُّحُّ فلا يناقض تلك الطبيعة ، ولكنَّه يدعها جامدةً مستعصيةً ، لا تلين ، ولا تستجيب ، ولا تتيسَّر .

وقد جعل الجبَّة من الثُّدِيِّ إلى التَّراقي ، وهذا من أبدع ما في الحديث ؛ لأنَّ كلَّ إنسانٍ فهو منفقٌ على ضروراته ، يستوي في ذلك الكريم ، والبخيل ، فهما على قدْرٍ سواءٍ من هذه النَّاحية ؛ وإنَّما التَّفاوتُ فيما زاد ، وسبغ من وراء هذا الحدِّ ، فهاهنا يبسط الكريم بسطه الإنسانيّ ، أمَّا البخيل ؛ فهو « يريد » لأنَّه إنسانٌ . الإرادة عملٌ عقليٌّ لا أكثر ، فإذا هو حاول تحقيق هذه الإرادة وقع من طبيعة نفسه

(١) رواه البخاري (٥٧٩٧) ومسلم (١٠٢١) . « سبغت » : تمَّت وطالت . « وفرت » : اتَّسعت ، وامتدَّت .

الكزَّة[١] فيما يعانيه مَنْ يوسع جبَّةً من الحديد لزقت كلُّ حَلْقةٍ من حلقاتها في مكانها ، فهي مستعصيةٌ ، متماسكةٌ ، فهو يوسِّعها فلا تتَّسع .

ألا ترى كيف تتوجَّه الحجَّة ، وكيف تدقُّ الفلسفة وهي في أظهر البيان ، وأوضحه ؟ وهل تحسب طبيعة البخيل في دقائقها النَّفسية لو هي نطقت ؛ بالغةً من وصف نفسها هذا المبلغ من جمالِ الفنِّ وإبداعه ؟ وهو بعدُ وصفٌ لو نقل إلى كلِّ لغات الأرض ؛ لزانها جميعاً ، ولكان في جميعها كالإنسان نفسه : لا يختلف تركيبه ؛ فلن يكون بثلاثة أعين ، لا في بلاد شكسبير ، ولا في بلاد الزُّنوج !

إنَّ كلام نبيِّنا ﷺ يجب أن يترجم بفلسفة عصرنا ، وآدابه ، فستراه حينئذٍ كأنَّما قيل مَرَّةً أخرى من فم النُّبوَّة ، وستراه في شرحه الفلسفي كالأزهار النَّاضرة : حياتها بشاشتها في النُّور ، وتعرفه إنسانيَّةٌ قائمةٌ تُصحَّح بها أغلاطُ الزَّمن في أهله ، وأغلاط النَّاس في زمنهم ؛ وتجده يرفُّ على البشريَّة المسكينة بحنانٍ كحنان الأم على أطفالها ، والنَّاس الآن كالأطفال غابت أمُّهم ، فهم في تنافرٍ صبيانيٍّ . وما الأمُّ بطبيعتها إلا الميزان لاستبدادهم ، والحكمة لطيشهم ، والائتلاف لتنافرهم ، والنِّظامُ لعبثهم . وبالجملة فحنان قلبها الكبير هو القانون لكلِّ قضايا هذه القلوب الصَّغيرة .

وقد كتبنا في فلسفة الأدب وحقيقته ، ومعانيه الإنسانيَّة ، وأنَّ الأديب التَّامَّ الأداةِ هو الإنسان الكونيُّ ، وغيره هو الإنسان فقط ، وأنَّ علم الأديب هو النَّفس الإنسانيَّة بأسرارها المتَّجهة إلى الطَّبيعة ، والطَّبيعة بأسرارها المتَّجهة إلى النَّفس ، ولذلك فموضعه من الحياة موضع فكرةٍ حدودها من كلِّ نواحيها الإسرار ، وأنَّ الأديب مكلَّفٌ تصحيحَ النَّفس الإنسانيَّة ، ونفيَ التَّزوير عنها ، وإخلاصَها ممَّا يلتبس بها على تتابع الضَّرورات ، ثمَّ تصحيح الفكرة الإنسانيَّة في الوجود ، ونفيَ الوثنيَّة عن هذه الفكرة ، والسُّموَّ بها إلى فوق ، ثمَّ إلى فوق ، ودائماً إلى فوق[٢] .

---

(١) « الكزَّة » : كزَّ فلانٌ : قلَّ خيره ، ومساعدته ، فهو كزٌّ . والكزاز : الانقباض واليبس.

(٢) نشر هذا المقال في مقتطف شهر يوليو سنة ١٩٣٢ ، وأكثر ما فيه يعدُّ متمِّماً لفلسفة هذا الفصل ، وسنجمع كلَّ مقالاتنا في كتابٍ يصدر ـ إن شاء الله ـ في آخر صيف هذا العام . (ع) .

قلت : وأحسبه كان يعني كتابه «قولٌ معروفٌ» وقد استغني عنه بهذا الكتاب «وحي القلم» ،=

فإذا تدبَّرت هذا المقال ، واعتبرت كلام النَّبيِّ ﷺ على مابيَّنا ، وشرحنا ، وأخذته من عصره ومن العصر الذي نعيش فيه ، ونظرت إلى ألفاظه ، ومعانيه ، واستبرأت ما بينها من خواصِّ الفنِّ بمثل ما نبَّهناك إليه من التَّأويل الَّذي مرَّ بك ، وعلمت : أنَّ كلَّ حقيقةٍ فنيَّةٍ لا تكون كذلك إلا بخاصَّةٍ فيها ، وأنَّ سرَّ جمالها في خاصَّتها ـ إذا جمعت ذلك ؛ لم تر مذهباً عن الإقرار بأنَّ النَّبيَّ ﷺ كما هو أعظم نبيٍّ ، وأعظم مصلحٍ ، فهو أعظمُ أديبٍ ؛ لأنَّ فنَّه الأدبيَّ أعظم فنٍّ يحقِّق للإنسانيَّة حياة أخلاقها ، وهو بكلِّ ذلك أعظم إنسانٍ ﷺ .

* * *

فالفنُّ في هذه البلاغة هو في دقائقه أثر تلك الرُّوح العليا بكلِّ خصائصها العظيمة الَّتي يحتاج إليها الوجود الرُّوحانيُّ على هذه الأرض ، ولذا ترى كلامه ﷺ يخرج من حدود الزَّمان ، فكلُّ عصرٍ واجدٌ فيه ما يقال له ، هو بذلك نبوَّة لا تنقضي ، وهو حيٌّ بالحياة ذاتها ، وكأنَّما هو لونٌ على وجهٍ منها ، كما ترى البياض مثلاً هو اللَّون على وجه طائفة من الجنس البشريِّ .

فإذا نظرت في هذا الفنِّ ؛ فانظره في حديثه ، وفي عمله ، وفي الدُّنيا ؛ الَّتي ألَّفها من التَّاريخ القطعة البليغة النَّادرة من الكلام ، وردَّ كل ما تدبَّرته من ذلك إلى تلك الرُّوح الجديدة على تاريخ الأرض ، فلتعلمنَّ حينئذٍ : أنَّ كلَّ بليغٍ هو شمعةٌ مضيئةٌ ، صُنعت لها مادَّة النُّور نوراً ، وجمالاً بجانب هذه الشَّمس ؛ الَّتي خُلقت فيها مادَّة النُّور نوراً ، وجمالاً ، وحياةً ، وقوَّةً ، هناك نورٌ لذي عينين ، وهنا النُّور لكلِّ ذي عينين : وذاك يتخايل كالحلم ، وهذا يفصح كالحقيقة ، وذلك ضوءٌ من حوله الظُّلمة دانيةٌ ، هذا قد طرد الظلمة عن نصف الدُّنيا إلى نصف الدُّنيا ؛ والأوَّل نورٌ بلا روح ، والثَّاني هو روحُ النُّور .

تلك في رأينا هي الطَّريقةُ الَّتي كان يفهمه بها أصحابه ﷺ ، كما يفهم الشَّاعر نور القمر في ليلة صيف بمعانٍ من الزَّمان والمكان ، ومن النَّفس والحالة ، ومن الهيئة والشَّكل ، ومن العين والفكر ، ومن السَّماء والأرض ، ففيه النُّور وزيادةٌ ؛ أي : الحقيقة ، وما ترتفع به على نفسها ، وبهذه الطَّريقة كانوا معه كأعظم فلاسفة

= وقد نشرنا هذه المقالة في هذا الجزء . وانظر «فترة جمام» من كتابنا «حياة الرَّافعي» . (س) .

الفنِّ مع الفنِّ إعجاباً ، وحبّاً ، وانقياداً ، وطاعةً حتى انخلعوا من عصرهم ، ودنياهم ، وخرجوا من أحوالهم وطبائعهم ، وانجذبوا إليه أشدَّ انجذابٍ عرفه التَّاريخ ، وأصبحوا مصرَّفين معه تصريف الحوادث لا تصريف الأشخاص ، وعادت أنفسهم وكأنَّ تأثير الأرض يلتقي فيها بتأثير السَّماء فيُغسل في سحبٍ عاليةٍ ، فلا يكون فيها كما يُريده النَّاس بل كما يريد الله ، ورجعت قلوبهم لا تلبس على دينها رأياً ، ولا هوىً ، وكأنَّما وضع لها هذا الدين حرساً على كلِّ سمعٍ ، وبالجملة : فأولئك قومٌ كأنَّما تناولهم النَّبيُّ ﷺ ، فأفرغهم ، ثمَّ ملأهم ، وما انتقلوا إلى منزلتهم العالية في التَّاريخ إلا بعد أن نقلهم هو إلى منزلة من منازل نفسه الشَّريفة .

وناهيك من رجال يمثِّل لهم بهذا المثل ؛ الذي يضربه لهم في الإيمان ليبلغوه ، أو يقاربوه ، فعن خبَّاب بن الأرتِّ ـ رضي الله عنه ـ قال : شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسِّدٌ بردة له في ظلِّ الكعبة ، قلنا : ألا تستنصر لنا ؟ ! ألا تدعو الله لنا ؟ ! قال : « كان الرَّجل فيمن قبلكم يُحفر له في الأرض ، فيُجعل فيه ، فيُجاء بالمنشار ، فيوضع على رأسه ، فيشقُّ باثنين ، وما يصدُّه ذلك عن دينه ، ويُمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظمٍ ، أو عصبٍ ، وما يصدُّه ذلك عن دينه »[١] .

فانظر يا هذا ! فإنَّه لو اجتمعت قوى الكون ، فجاءت يشدُّ بعضها بعضاً ، فنزلت في عبارة من المنشار الكلام لتملأ نفوس المؤمنين بقوَّتها ؛ لما وُضعت إلا هذا الوضع من هذا التَّمثيل بأمشاط المسامير ، وأسنان في عظم الإنسان الحيِّ ، ولحمه ، وظاهر التَّمثيل على ما رأيت من العجب ، ولكن له باطناً أعجب من ظاهره ، وهو البلاغة كلُّ البلاغة ، والبيان حقُّ البيان ، فإنَّما يريد ﷺ أنَّ الحديد لا يأكل ، ولا يمزع من أولئك الأقوياء بإيمانهم عظماً ، ولحماً ، وعصباً ، بل هو حديد يأكل حديداً مثله ، أو أشدَّ منه ، فإنَّ للرُّوح المؤمنة المسلَّطة على جسمها قوَّةٌ تصنع هذه المعجزة ، فيمرُّ الحديد في العظم ، واللَّحم ، والعصب يسلبها الحياة ، ولكنَّها تسلبه شدَّته ، وجَلَده وصبره ! .

---

(١) رواه البخاري (٣٦١٢) ، وأحمد (٥/١٠٩ ، ١١١) .

وكلُّ ما جاء من التَّمثيل في كلامه ﷺ ينطوي فيه من إبداع الفنِّ البيانيِّ وإعجازه ما يفوت حدود البلغاء ، حتَّى لا شكَّ ـ إذا أنت تدبَّرته بحقِّه من النَّظر ، والعلم ـ : أنَّ بلاغته إنَّما هي شيءٌ كبلاغة الحياة في الحيِّ ، هي البلاغة ولكنَّها أبدع ممَّا هي ؛ لأنَّها الحياة أيضاً .

وأنت خبيرٌ أنَّ هذا النَّبيَّ الكريم ﷺ كانت تأخذه عند نزول الوحي عليه أحوالٌ وصفت في كتب الحديث ، قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ : ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشَّديد البرد ، فيفصِم عنه وإنَّ جبينه ليتفصَّد عرقاً(١) .

وفي حديثٍ آخر عنها ، قالت : فأخذه ما كان يأخذه من البُرَحاء حتَّى إنَّه ليتحدَّر عنه مثل الجمان من العرق في يوم شاتٍ(٢) .

وفي حديث زيد بن ثابت : فأنزل الله عزَّ وجلَّ على رسول الله ﷺ ، وفخذه على فخذي ، فثقلتْ عليَّ حتَّى خفت أن تُرضَّ فخذي(٣) .

وفي حديث يعلى بن أبي أميَّة حين قال لعمر : أرني النَّبيَّ ﷺ حين يوحى إليه : فأشار عمر إليَّ ، فجئت وعلى رأس رسول الله ﷺ ثوبٌ قد أُظلَّ به ، فأدخلت رأسي فإذا رسول الله ﷺ محمرُّ الوجه ، وهو يغطُّ ، أي : يردِّد نفسه من شدَّة ثقل الوحي(٤) .

فهذه كلُّها أحوالٌ تصف عمل الدِّماغ بكلِّ ما فيه من جهد القوى العصبيَّة ، ليرتفع بالحياة إلى ما فوقها ، ويتركها لوعي الرُّوح وحدها ، لا يشاركها في هذا الوعي فكرٌ ، ولا هاجسٌ ، ولا يتَّصل به شيءٌ من حياة الحيِّ ، فيتحقَّق للنَّبيِّ ﷺ وجودٌ آخر غير وجوده المحدود بجسمه ، وطباعه ، ودنياه ؛ ويخرج بوعيه من هذه الجاذبية الأرضية إلى ما وراء حدود الطَّبيعة من قوى الغيب ، وبذلك يتلقَّى عن روح الكون ثمَّ يفصِم عنه وقد وَعَى ما أوحي إليه ، وما وصفه زيد

---

(١) رواه البخاري (٢) ، والترمذي (٣٦٣٤) .
(٢) رواه البخاري (٢٦٦١) ، ومسلم (٢٧٧٠) .
(٣) رواه البخاري معلقاً (الفتح ١/٤٧٨) ، والترمذي (٣٠٣٣) .
(٤) رواه البخاري (١٥٣٦) ، ومسلم (٨/١١٨٠) .

ابن ثابت ـ من أنَّ فخذه كادت ترضُّ ـ برهانٌ قاطعٌ على أنَّ روحه صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم تنسرحُ من جسمه ساعة الوحي ، فيثقل الجسم ؛ لأنَّه إنَّما يخفُّ بالرُّوح وتبقى وظائف الحياة عاملةً أعمالها بعسرٍ وبطءٍ ، لاتِّصالها بشعاعٍ من الرُّوح دون الرُّوح بجملتها ، ولسنا هنا بصدد الكلام عن الوحي فله موضعٌ ـ إن شاء الله ـ في كتابنا (أسرار الإعجاز)[1] وإنَّما نريد أن ندُلَّ على أنَّ هذه التهيئة الإلَهية لذلك الجهاز العصبيِّ لها أثرها العظيم في فنِّ بلاغته ﷺ ؛ وبها امتاز عن كلِّ الدُّنيا : فإنَّ الملهَم من أفذاذ العبقريين على هذه الأرض إنَّما يبلغ ما يبلغه ببعض هذا الذي رأيت ، وفي بعض هذا أبدع ما ورثت الدُّنيا من فنون البيان ، وكأنَّ في الدِّماغ مادَّةً في موضعٍ منه يميِّز بها من تختارهم السَّماء لحكمتها ، وإلهامها ، وإذا كان فنُّ العبقريين هو أسمى الكلام الإنسانيِّ ؛ لما خُصُّوا به من هذه التهيئة ؛ فإنَّ فنَّه ﷺ يكون ولا جرم من باب الأكبر ممَّا هو أكبر في إلهام الإنسانيَّة كلِّها .

ولهذه القوَّة النَّادرة كان بيانه قويّاً على مزج معانيه بالنَّفس بما فيه من صنعة الحياة ، وإنَّما فلسفة البيان الفنِّي أن تمتد الحياة من النَّفس إلى اللَّفظ ، فتصنع منه صُنعَها ، فتفصل العبارة الفنِّيَّة عن كاتبها ، أو قائلها ، وهي قطعةٌ من كلامه ؛ لتستحيل عند قارئها ، أو سامعها قطعةً من الحياة في صورةٍ من صور الإدراك ؛ فالبيان الفنيُّ هو الوسيلة لحمل الوجود ، وبعثرته في مواضع غير مواضعه . وخلقه خلقاً آخر في النَّفس الإنسانيَّة ، وبذلك يؤوَّل قوله ﷺ : « إنَّ من البيان لسحراً »[2] جعل نوعاً من البيان هو السِّحر ، لا البيان كلُّه ، فالحديث كالنَّص على ما تسمِّيه الفلسفة الأوربية اليوم (بالبيان الفنِّيِّ) ، كأنَّه قال : إنَّ من البيان فنّاً هو سحرٌ من عمل النَّفس في اللُّغة تغيِّر به الأشياء ، وله عجب السِّحر ، وتأثيره ، وتصرُّفه ؛ وهذا معنى لم يتنبَّه إليه أحدٌ ، ولا يُذكر معه كلُّ ما قالوه في تفسير الحديث ، وبذلك التَّأويل يكون هذا الحديث قد احتوى أسمى حقيقةٍ فلسفيَّةٍ للفنِّ .

ومن أثر تلك القوَّة أيضاً ما تراه من شدَّة الوضوح في كلامه ﷺ ، ولقد

---

(١) انظر كتابنا « حياة الرافعيّ » . (س) .

(٢) رواه البخاري (٥٧٦٧) ، ومسلم (٨٦٩) .

رأينا هذه البلاغة النَّبويَّة العجيبة قائمةً على أنَّ كلَّ لفظٍ هو لفظ الحقيقة لا لفظ اللُّغة ، فالعناية فيها بالحقائق ، ثمَّ الحقائق هي تختار ألفاظها اللُّغويَّة على منازلها ؛ وبذلك يأتي الكلام كأنَّه نطقٌ للحقيقة المعبَّر عنها ، والكلمة الصَّادقة تنطق مرَّةً واحدةً ؛ فصورتها اللُّغويَّة لا تكون إلا صريحةً منكشفةً على معناها المضيء ، كأنَّما ألقي فيها النُّور .

وهو معلومٌ : أنَّه ﷺ لا يتكلَّف ، ولا يتعمَّل[1] ، ولم يكتب ولم يؤلِّف ، ومع هذا لا تجد في بلاغته موضعاً يقبل التَّنقيح ، أو تعرف له رقَّةً من الشأن كأنَّما بين الألفاظ ومعانيها في كلِّ بلاغته مقياسٌ ، وميزانٌ ، أو كأنَّ هذه البلاغةَ تنبثق بالكلام على طبيعةٍ عاملةٍ فيه بقواها الدَّائبة الثَّابتة ، ففنُّها الجميل هو التَّركيب الذي تجيء فيه كما ترى الشَّجر مثلاً كاسياً من ورقه وزهره ؛ فأنت منه بإزاء عملٍ جميلٍ لأنَّك بإزاء حقيقةٍ طبيعيَّةٍ قد انفردت في ذاتها ، ومعنى انفرادها في ذاتها أنَّها كذلك هي ، فليس فيها موضعُ شيءٍ غير ما هو فيها ، ثمَّ لا تنسَ : أَنَّ النُّبوَّةَ أكبرُ السَّبب في ذلك الوضوح البيانيِّ العجيب ؛ فإنَّ الحياة لا تستغلق في البلاغة بإنسانٍ إلا وهي غنيَّةٌ عنه ؛ ولعلَّ غموض بعض الفلاسفة ، وبعض الشُّعراء هو من دليل الطَّبيعة على أنَّهم زائدون في الطبيعة . . . ألا ترى أنَّ من أساليبهم الفلسفيَّة ، والشِّعريَّة ما يجعل معنى الكلمة أحياناً هو نقض معناها[2] ؛ إذ يتصنَّعون للفكر ، ويستجلبون له ، ويشقِّقون[3] فيه ، كما يفعل أهل صناعة الألفاظ بالألفاظ ، فها هنا البديع اللَّفظيُّ وهناك « البديع » ، ولا طائل وراءهما إلا صناعةٌ ، وبهرجةٌ .

ومتى كان النَّبيُّ قسماً من الحياة بل مادَّةً لمعانيها الجديدة ؛ فلن يكون بيانه إلا على ما وصفنا لك جمالاً ، ووضوحاً ، ومنفعةً ، ودقَّةً ، وسموّاً بقدر ذلك كلِّه .

* * *

---

(١) « يتعمل » : يتكلَّف .

(٢) من ذلك قول « جيته » شاعر الألمان : إنَّ الكلَّ باطلٌ ، معناه : أنَّ الكلَّ ليس بباطلٍ . ولعلَّ هذا في « البديع الفكري » من باب : أكلُّ النفي للإثبات . . . (ع) .

(٣) « يشقِّقون » : شقَّق الكلام : أخرجه أحسن مخرج .

وهنا معنى نريد أن ننبِّه إليه ، ونتكلَّم في سرِّه ، وحقيقته ، فإنَّك تقرأ ما جُمع من الكلام النَّبويِّ ، فلا تصيب فيه ما تصيبه في بلاغة أدباء العالم ممَّا فنُّه الكلام في المرأة ، والحبِّ ، وجمال الطَّبيعة ، وهو في بلاغة النَّاس كالقلب في الجسم : لا تخلو منه ، ولا تقوم إلا به حتَّى تجد الكلام في المرأة وحدها شطر الأدب الإنسانيِّ ، كما أنَّ المرأة هي شطر الإنسانيَّة ، ولا يُعرف له ﷺ في هذه الأغراض إلا كلماتٌ بيانيَّةٌ جاءت بما يفوق الوصف من الجمال ، والدِّقَّة ، متناهيةً في الحسن ، ظاهرةً في الدَّلالة ، يظهر في وجه بلاغتها ما يظهر في وجه العذراء من طبيعة الحياء ، والخفر[١] ؛ كقوله في النساء : « رفقاً بالقوارير »[٢] ، وقوله لأسامة بن زيد ، وقد كساهُ قبطيَّةً[٣] ، فكساها امرأته : « أخاف أن تصف حجم عظامها »[٤] .

قال الشَّريف الرَّضيُّ في شرح هذه الكلمة : وهذه استعارة ، والمراد : أن القُبطية برقتها تلتصق بالجسم ، فتبيِّن حجم الثَّديين ، والرَّادفتين ، وما يشتدُّ من لحم العضدين ، والفخذين ، فيعرف النَّاظر إليها مقادير هذه الأعضاء ، حتىٰ تكون كالظاهرة للحظة ، والممكنة للمسه ، فجعلها عليه الصَّلاة والسلام لهذه المحالِّ كالواصفة لما خلفها . والمخبرة عما استتر بها ؛ وهذه من أحسن العبارات عن هذا المعنى ، ولهذا الغرض رمى عمر بن الخطاب في قوله : « إيَّاكم ولبس القباطيِّ ، فإنَّها إلا تشفَّ ؛ تصف » . فكان رسول الله ﷺ أبا عذرِه[٥] هذا المعنى ، ومن تبعه فإنَّما سلك فجَّه[٦] .

قلنا : وهذا كلامٌ حسنٌ ، ولكنَّ في عبارة الحديث سرّاً هو من معجزات البلاغة النَّبويَّة لم يهتدِ إليه الشَّريف على أنَّه هو حقيقة الفنِّ في هذه الكلمة

---

(١) « الخفر » : شدَّة الحياء .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) بضم القاف : ثوب من ثياب مصر رقيقة بيضاء ، وضموا « قافه » فرقاً بينه وبين ما ينسب إلى القبط من غير الثياب . (ع) .

(٤) رواه أحمد (٥/ ٢٠٥) .

(٥) « أبا عذره » : أي أنه ﷺ أوّل مَنْ فتق هذا المعنىٰ ، وقاله .

(٦) « فجَّه » : الفج : الطريق الواسع بين جبلين ، أو في الجبل .

بخلاصتها ، ولا نظنُّ أنَّ بليغاً من بلغاء العالم يتأتَّى لمثله ، فإنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام لم يقل : أخاف أن تصف حجم أعضائها ، بل قال : حجم عظامها ، من أنَّ المراد لحم الأعضاء في حجمه ، وتكوينه ، وذلك منتهى السُّموِّ بالأدب ؛ إذ ذكر « أعضاء » المرأة في هذا السياق ، وبهذا المعرض ، هو في الأدب الكامل أشبه بالرَّفث[1] ، ولفظة « الأعضاء » تحت الثوب الرَّقيق الأبض تنبِّه إلى صورٍ ذهنيَّةٍ كثيرةٍ هي الَّتي عدَّها الرَّضيُّ في شرحه ، وهي تومىء إلى صورٍ أخرى من ورائها ، فتنزَّه النَّبيُّ ﷺ عن كلِّ ذلك ، وضرب الحجاب اللُّغويَّ على هذه المعاني السَّافرة . . وجاء بكلمة « العظام » لأنَّها اللَّفظةُ الطَّبيعية المبرَّأة من كلِّ نزغةٍ[2] ، لا تقبل أن تلتوي ، ولا تثير معنى ، ولا تحمل غرضاً ؛ إذ تكون في الحيِّ ، والميت ، بل هي بهذا أخصُّ ؛ وفي الجميلِ والقبيح ، بل هي هنا أليق ، وفي الشباب والهرم ، بل هي في هذا أوضح . والأعضاء لا تقوم إلا بالعظام ، فالمجاز على ما نرى ، والحقيقة هي ما علمت .

ومن كلماته في الوصف الطَّبيعيِّ قوله ﷺ وهو يذكر أوقات الصَّلاة : « العصر إذا كان ظلُّ كلِّ شيءٍ مثله ، وكذلك ما دامت الشمس حيَّةً ، والعشاءُ إذا غابَ الشَّفق إلى أن تمضي كواهلَ اللَّيل »[3] وكواهل الليل : أوائله ، وفروعه المتقدِّمة منه ؛ كالذي يتقدم المطايا من أعناقها الممتدَّة بعض الامتداد ، وقوله وقد سأله رجلٌ : متى يصلِّي العشاء الآخرة ؟ فقال عليه الصَّلاة والسَّلام : « إذا ملأ الليل بطنَ كلِّ وادٍ »[4] . وقوله : « إذا طلع حاجب الشَّمس فأخروا الصَّلاة حتَّى ترتفع »[5] . وقوله : « إنَّ رجلاً من أهل الجنَّة استأذن ربَّه في الزَّرع ، فقال له : ألستَ فيما شئتَ ؟ قال : بلى ! ولكنِّي أحبُّ أن أزرع . قال : فبذَر ، فبادر الطَّرفَ نباته ، واستواؤه ، واستحصاده ، فكان

---

(١) « الرفث » : كلمة جامعة لما يريد الرجل من المرأة .
(٢) « نزغة » : نَزْغُ الشيطان : وساوسه ، وما يحمل الإنسان على المعاصي .
(٣) رواه أحمد (٣/ ٣٣٠) ، والترمذي (١٥٠) ، والنسائي (١/ ٢٥٥) .
(٤) رواه أحمد (٥/ ٣٦٥) .
(٥) رواه البخاري (٥٨٣) ، ومسلم (٨٢٩) .

أمثال الجبال(١) » .

وقوله : « بينا رجلٌ يمشي ، فاشتدَّ عليه العطش ، فنزل بئراً ، فشرب منها ثمَّ خرج ، فإذا بكلبٍ يلهث ، يأكل الثرى من العطش ، فقال : لقد بلغ هذا مثل الَّذي بلغ بي ! فملأ خفَّه ، ثمَّ أمسكه بفيه ، ورَقِيَ ، فسقى الكلب ؛ فشكر الله له ، فغفر له » قالوا : يا رسول الله ! وإنَّ لنا في البهائم أجراً ؟ قال : « في كلِّ كبدٍ رطبةٍ أجرٌ »(٢) .

فهذا ونحوه من الفنِّ البديع النَّادر ، وهو مع ذلك لا يأتي في كلامه ﷺ إلا في مثل ما رأيت ، فلا يراد منه استجلاب العبارة ، ولا صناعة الخيال ، فيظنُّ من لا يميِّز ، ولا يحقِّق أن خلو البلاغة النَّبويَّة من فنِّ وصف الطَّبيعة ، والجمال ، والحبِّ دليلٌ على ما ينكره ، أو يستجفيه ، ويقول : بداوةٌ ، وسذاجةٌ ، ونحو ذلك ممَّا تشبِّهه الغفلة على جهلة المستشرفين ، ومن في حكمهم من ضعاف أدبائنا ، وجلَّة كتَّابنا ؛ وإنَّما انتفى ذلك عن النَّبيِّ ﷺ لانتفاء الشِّعر عنه ، وكونه لا ينبغي له ـ كما بسطناه في موضعه(٣) ـ فعمله أن يهدي الإنسانيَّة ، لا أن يزيِّن لها ، وأن يدلَّها على ما يجب في العمل ، لا ما يحسن في صناعة الكلام ؛ وأن يهديها إلى ما تفعله ؛ لتسمو به ، لا إلى ما تتخيَّله ؛ لتلهو به والخيال هو الشيءُ الحقيقيُّ عند النَّفس في ساعة الانفعال والتأثُّر به فقط ، ومعنى هذا : أنَّه لا يكون أبداً حقيقةً ثابتةً ، فلا يكون إلا كذباً على الحقيقة .

ثمَّ هو ﷺ ليس كغيره من بلغاء النَّاس : يتَّصل بالطَّبيعة ؛ ليستملي منها ، بل هو نبيٌّ متَّصلٌ بمصدرها الأزليِّ ؛ ليملي فيها ؛ وقد كانت آخر ابتسامةٍ له في الدُّنيا ابتسامته للصَّلاة(٤) يتهلَّل لطهارة النَّفس المؤمنة وجمالها ، قائمةً بين يدي

---

(١) رواه البخاري (٢٣٤٨) .

(٢) رواه أحمد (٢/ ٢٢٢) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ١٣١) .

(٣) كتابنا : « إعجاز القرآن » . (ع) .

(٤) عن أنسٍ : أنَّ أبا بكر كان يصلِّي بهم في وجع النبيِّ ﷺ الذي توفِّي فيه ، حتى إذا كان يوم الإثنين وهم صفوف في الصَّلاة ، فكفَّ النبي ﷺ ستر الحجرة ينظر إلينا وهو قائم كأنَّ وجهه ورقة مصحف، ثمَّ تبسَّم ضاحكاً، فهممنا أن نفتتن من الفرح برؤية=

خالقها ، منسكباً في طهارتها روح النُّور . وكلُّ إنسانٍ إنَّما يبدو الكون في عينه على ما يرى ممَّا يشبه ما في نفسه ، فكلُّ ما رآه المصلِّي الخاشع في صلاته[١] يبدو له كأنَّه يصلِّي في ضربٍ من العبادة على نحوٍ من الدِّين ، وكلُّ ما رآه السَّكران في سكره يكاد يراه متخبِّطاً يعربد ما يتماسك !

ثمَّ إنَّ الكلام في وصف الطَّبيعة ، والجمال ، والحبّ على طريقة الأساليب البيانيَّة ، إنَّما هو بابٌ من الأحلام ؛ إذ لا بُدَّ فيه من عيني شاعرٍ ، أو نظرة عاشقٍ ، وهنا نبيٌّ يوحى إليه ، فلا موضع للخيال في أمره ، إلا ما كان تمثيلاً يراد به تقوية الشُّعور الإنسانيِّ بحقيقة ما في بعض ما يعرض من باب الإرشاد والموعظة ، كما مرَّ بك من أمثلته ، وكقوله ﷺ : « إنَّ المؤمن يرى ذنوبه كأنَّه قاعدٌ تحت جبلٍ يخاف أن يقع عليه ، وإنَّ الفاجر يرى ذنوبه كذباب مرَّ على أنفه »[٢] وهذا كلام أبلغ ما أنت واجدٌ من تفسيره تلك النَّفس المؤمنة بإحساسها الرَّقيق ، كأنَّه حاسَّةٌ من النُّور كُبت في شهورها ، وتلك النَّفس الفاجرة بإحساسها الغليظ حاسَّةٌ من التُّراب .

ويكاد المؤمن ـ الذي يسمع هذا الوصف يذكره ذنوبه ـ أن يحسَّ بحركة جبلٍ يهمُّ أن ينقلع ، فيميل عليه ، أمَّا الفاجر فيسمعه يذكره ذنوبه ، فإذا هي في خياله نقطٌ سودٌ تمرُّ مرور الذُّباب ، ليس منه إلا الحسُّ به ، كما يحسُّ من يُضرب على أنفه برجل ذبابة . . . وجعل الذُّباب يمرُّ على أنفه دون عينه أو فمه ، وذلك منتهى الجمال في التَّصوير ؛ لأنَّ الذُّباب إذا وقع على الفم ، أو العين ثبت ، وألحَّ ، فإذا وقع على قصبة الأنف ؛ لم يكد يقف ، ومرَّ مرورَه .

الكون في نظر النَّبيِّ ﷺ آية الحكمة ، لا آية الفنِّ ، ومنظر المستيقن ، لا منظر المتخيِّل ، ومادَّة العبوديَّة لله ، لا مادَّة التألُّه للإنسان ، وبذلك حرَّم

= النَّبيِّ ﷺ ، فنكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصفَّ ، وظنَّ أنَّ النبيَّ ﷺ خارجٌ إلى الصَّلاة ، فأشار إلينا النَّبيُّ ﷺ : أن أتمُّوا صلاتكم ، وأرخى السِّتر ، فتوفِّي من يومه . (ع) .

(١) من الكلمات الجميلة الدقيقة في نحو هذا المعنى قوله عليه الصَّلاة والسَّلام : «لا تزالون في صلاة ما انتظرتم الصَّلاة!» . (ع) . قلت : الحديث رواه البخاري(٦٠٠).

(٢) رواه البخاري (٦٣٠٨) ، ومسلم (٢٧٤٤) .

الإسلام أشياء ، وكره أشياء لا يكون الفنُّ بغيرها فنّاً ، في ضروب من الشِّعر ، والتَّصوير ، والموسيقا ، والحبِّ ؛ لأنَّه إنَّما ينظر للإنسان واحداً وجمعاً ، وحاضراً وآتياً ، وواجباً ومنفعةً ، ولذَّةً وألماً ، وهذه كلُّها لا إطلاق فيها إلا من أجل القيد ، على حين أنَّ الفنَّ لا قيد فيه إلا من أجل الإطلاق ؛ وأساس الدِّين حظُّ الجماعة، وقيودها . وأساس الفنِّ حظُّ الفرد ، وحرِّيته ، وهذه الحياة لا تبدو في حالة تركيبٍ ، وانتظامٍ إلا إذا كانت للكلِّ ، فإذا كانت لفردٍ في هيئة انحلالٍ ، وانتقاضٍ ، وأصبحت في الكون كلِّه كأنَّها عمر إنسانٍ واحدٍ .

ثمَّ إنَّ للفنِّ ألواناً لا بدَّ منها لتصويره الجميل ؛ الذي تعجب به النَّفس ، والشَّيطان هو اللَّون الأحمر فيها . . . أي : هو أشدُّها زهواً ، وإشراقاً ، وجمالاً في التَّصوير الفنِّيِّ لكلِّ ما في المرأة ، والحبِّ ، والجمال ، وشهوات النَّفس ، ولسنا ننكر : أنَّ الحياة القويَّة حين تمازجُها هذه الفنون تكسب مرحاً ، ونشاطاً ، ويكون لها رونقٌ ، وفيها متاعٌ ، ولكنَّ الحياة لا تكون بها كذلك إلا من أنَّها تحتسي خمرَها . . . فلها بعد من عاقبة هذه الفنون شبيهٌ بما يكون للجسم القويِّ من عاقبة الخمر إذا تغلغلت الخمر في شعاب كبده ، وأحالت رطبتها يابسةً ، كما وقع في أطوارٍ كثيرةٍ من تاريخ الأمم ، فليس الاعتبار في هذا التَّشبيه بما يعرض من تأثير السَّاعة الزَّائلة بأفراحها ، وفنِّ حياتها ، بل الشَّأن للعاقبة المحتومة متى جاءت ساعتها الباقية بأحزانها ، وفنِّ هلاكها ، فالإسلام فيما حرَّم ، وكره من ذلك لم يزد على أن أراد للحياة أن تحيا ؛ لأنَّه لا يقرُّ صورةً من صور انتحارها .

ومَن كان أكبر عمله إنشاء الحقائق الإنسانيَّة ، وتقريرُها شريعةً ، وعاطفةً ، وأعمالاً ، فلا جرم كان فنُّه غير الذي أكبرُ عمله تمويهُ تلك الحقائق ، وزخرفتها ؛ ليقع الإحساس بها على غير وجهها ، فتخفُّ بالواقع منها على النَّفس خفَّة الكذب في ساعة تصديقه ؛ وهذا هو أكبر عمل الشِّعر .

وهاهنا سرٌّ دقيقٌ لا يتمُّ كلامنا إلا بشرحه ، ولنقطع القول في هذا المعنى ، فيظهر حقُّه من باطنه : قلنا آنفاً : إنَّ النَّبيَّ ﷺ ليس كغيره من بلغاء الناس : يتَّصل بالطَّبيعة يستملي منها ، بل هو نبيٌّ مرسلٌ متَّصل بمصدرها الأزليِّ ليملي فيها . ومعنى هذا : أنَّه لا يعرض له من زيغ النَّفس ما يعرض لغيره من

النَّاس ، فأحكم حكماء الدُّنيا لا يستطيع أن يتبيَّن جزءاً صغيراً من الكون على حقيقته ؛ إذ كانت حواسُّ الجسم غير مهيأةٍ لذلك ، ففهمُ جزءٍ من الكون فهماً صادقاً جزءاً لا يتمُّ إلا بفهم الكون بأجمعه ، فهو كلُّه ذرَّة مكبَّرةٌ إلى ما لا ينتهي ولا يحدُّ ، وليست النُّبوَّة شيئاً غير الاتِّصال بالسِّرِّ .

والحاضرُ الَّذي يكون في إنسانٍ من النَّاس ، هو حاضراً ليس غير ؛ لأنَّه يتحوَّل ، ويفنى ، فهو من الزَّيغ ؛ الَّذي يعتري النَّفس ، ومنه كلُّ أغراض الحياة البشريَّة الفانية ، ولهذا كان طابع الله على نبيِّنا ﷺ هو تجريده من زيغ الهوى ، وسرف الطَّبيعة ، فهو من النَّاس ، ولكنَّه متخلِّقٌ بأخلاق الله سبحانه ، وله في هذا الباب ما ليس لأحدٍ ، ولا يطيقه أحدٌ ، ويجب على من يقرأ سيرته ، وشمائله ، وحديثه أن يبحث دائماً على طابع الله في كلِّ شيءٍ منها فإنَّه سيرى حينئذٍ كأنَّه يدرسها مع الملائكة ، لا مع الناس ، وسيظهر له من تفسيرها : أنَّ الدُّنيا لم تستطع تحقيق الأخلاقيَّة العليا إلا فيها ، وأنَّه ﷺ كان إنساناً ، وكان أيضاً حركةً في تقدُّم الإنسانيَّة ؛ وأنَّ من معجزاته : أنَّه أطاق في تاريخه ما عجزت عنه البشريَّة في تاريخها ، وأنَّ كلَّ أموره ﷺ موضوعةٌ وضعاً إلـهياً ، كأنَّها صفاتٌ كوَّنها الله ، وعلَّقها في التاريخ لمعاني الحياة ، تعليق الشَّمس في السَّماء لموادِّ الحياة .

إنَّ الشَّهوات ، والمصالح إنَّما هي حصر النَّفس في جانبٍ من الشُّعور محدودٍ بلذَّاتٍ ، وهمومٍ ، وأحاسيس تجعل غرض الإنسان في الإنسان نفسه ، فهو كما يملأ معدته ، ويتأنَّق في الاختيار لها ، يريد من كلِّ ذلك أن يملأ شخصه على هذه الطَّريقة بعينها ، طريقة إشباع معدته . . . وبهذا تسخر منه حقائق الكون ، لأنَّها لا تحدُّ بشخصٍ ، ولا تنحصر في أحدٍ ، وكلُّ من كانت حدوده الإنسانيَّة جسمَه ، ولذَّات جسمه ، فهو في مقدار هذا الكون كالميِّت المحدود من الأرض كلِّها بقبره ، وتراب قبره ، وإنَّه ليجد جسمه ، وأكاذيب الطَّبيعة عليه ، ولكنَّه لن يجد الرُّوح ، وحقائقها ، وإذا لم يجد هذه ؛ فلن يعرف الكون ، وأسراره ؛ وإذا فقد هذا ؛ فهو الحاضر الضَّيِّق المشوَّه المكذوب ، ومن ثمَّ ففنُّه شهوة إحساسه ؛ وإن كان مخدوعاً ، وشهوة نظره ؛ وإن كان ملبَّساً عليه ، وشهوة خياله ؛ وإن كان التَّمويه ، والزُّور ، والحاضر

الضَّيِّق المشوَّه المكذوب الخادع هو المسمَّى في لغة القرآن والحديث « بالدُّنيا » فإذا اتَّسع الإنسان لروحه ، وأدرك حقيقتها ، ووعى ما بينها وبين الكون ، وأخذ يحقِّق هذه الرُّوح السَّماويَّة في أعماله ، وتخطَّى حدود جسمه إلى فكرة الخلود ، فهذا كلُّه هو المسمَّى في لغة القرآن ، والحديث « بالآخرة » فهما كلمتان في منتهى الإبداع من الفنِّ ، والفلسفة ؛ وعلى ذلك يؤوَّل قوله ﷺ في خطبته : « من كان همُّه الآخرة ؛ جمع الله شمله ، وجعل غناه في قلبه ، وأتته الدُّنيا وهي راغمةٌ ؛ ومن كان همُّه الدُّنيا فرَّق الله أمرَه ، وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدُّنيا إلا ما كُتب له »[1] .

وأنت إذا فسَّرت هذه الكلمات بما وصفنا لك ، ووجَّهتها على ذلك التَّأويل ؛ رأيت عجائب معانيها لا تنقضي ، أدركت سرَّ قوله ﷺ : « إني على علمٍ من الله علَّمنيه »[2] فاتِّساع الذَّات الإنسانيَّة ، ومادَّتها لحقائق الكون ، يجعل الإنسان كالكون نفسه ، مجتمعاً غير مفرَّقٍ على هموم الحياة ؛ ويجعل الغِنى معنىً لا مادَّةً ؛ ولو امتلك إنسان من النَّاس كلَّ ما طلعت عليه الشَّمس ، وكان له كنزٌ في المشرق ، وكنزٌ في المغرب ؛ لما بلغ شيئاً قليلاً من لذَّة هذا المعنى في قلبه ؛ وفي هذه الحالة تصبح الدُّنيا العريضة ؛ التي يهلك النَّاس في تحصيلها ، وليست إلا ضرورةً صغيرةً ، قد تكون في ثوبٍ ، ولقيماتٍ ونحوها ممَّا لا خطر له ، وهذا هو إرغامها وهي مالكة الملوك ، فإذا ضاق الإنسان عن روحه ؛ أصبحت النَّفس كالمنخُل يوضع الدَّقيق النَّاعم فيه ؛ ليخرج منه ، فيمسكه كلَّه ، ولا يمسك منه شيئاً ، ووضع بين عينيها معنى الفقر ، فهي تعمل أبداً لتمتلىء ، ولا تمتلىء أبداً ؛ وإذا كان المنخُل متخذاً على الطَّريقة التي صنع بها ؛ ففقره ـ ولا جرم ـ معلَّقٌ عليه من ذات تركيبه . « أفهمت . . . »؟ .

ولمَّا كان النَّبيُّ ﷺ متساوقاً[3] مع الحقيقة ، متَّصلاً بها ، محدوداً بربِّه ، لا بنفسه ؛ كان لذلك خارجاً من حاضر ما نحن فيه ، ممتدّاً بمعناه الإنسانيِّ

---

(١) رواه ابن ماجه (٤١٠٥) والطبراني في المعجم الأوسط (١٠/٢٤٧) . « راغمة » : منقادة ، صاغرة .

(٢) رواه البخاري (١٢٢) ، ومسلم (٢٣٨٠) .

(٣) « متساوقاً » : ساوق فلاناً : تابعه ، وسايره ، وجاراه .

الكامل إلى المستقبل الذي وراء الحياة ، فما نحضره نحن بطبيعتنا في بعض الأسماء لا يلتفت هو إليه بطبيعته ؛ ومن ذلك أوصاف الغنى ، والحلية ، والنَّعيم ، والمتاع ، والجمال ، والمطعم ، والمشرب ، وما داخل الطَّبيعة من مثل معانيها ، وما جرى هذا المجرى ، فهذا كلُّه يراه النَّاس من جهة الحاجة إليه ، والمطعم فيه ؛ إذ كان ضعف إدراكهم ، وضيق وعيهم ممَّا يبدع لهم أكاذيب الخيال فتجيءُ من ذلك أوصافهم وفنون أوصافهم ، أمَّا النَّبيُّ ﷺ فيرى ذلك من ناحية الغنى عنه والسُّموِّ عليه ؛ إذ كان لا ينظر بطبيعة روحه العظيمة إلا أعلى النَّظرين ، وأطهرهما ، فآخر إدراكنا للحقيقة والطَّبيعة أوَّلُ إدراكه هو للطَّبيعة والحقيقة ، وما تعجز عنه الإنسانيَّة تبدأ منه النُّبوَّة .

وعلى هذا فإنَّ من أقوى البراهين على كماله ﷺ ، ونبوَّته ، واتِّساع روحه ، ونفاذ إدراكه لحقائق الكون أنَّه لم يتبسَّط في الفنون كما يصنع البلغاءُ ، ولم يأخذهم مأخذهم فيها ؛ إذ كانت كلُّها من أكاذيب القلب والفكر ، والعين .

وفي قانون الحقيقة : أنَّ الأشياءَ هي كلُّ الأشياء ، وهي كما هي ، أمَّا في قانون الكذب ، فالأشياء كلُّها ما تختاره أنت منها ، وكما تختاره .

بحسْب الدُّنيا من جمال فنِّه ﷺ ما يضيف إلى الحياة عظمة الأشياء العظيمة ، ويدفع الإنسانيَّة في طريقها الواحد الذي هوَ بينَ الأب والأمِّ ، طريق الأخ إلى أخيه ، يكون في الدُّنيا بين الرَّجلين كما هو الدَّم بين القلبين رحمةً ، ومودَّةً ، وبحسبنا من جمال هذا الفنِّ ما يهدي الإنسان إلى حقيقة نفسه ؛ فيقرُّه في الحقيقيِّ من وجوده الإنسانيِّ ، ويجعل الفضائل كلَّها تربيةً للقلب ؛ يكبرُ بها ، ثمَّ يكبرُ ، ثمَّ لا يزال يكبرُ حتَّى يتَّسع لحقيقة هذه الكلمة الكبرى : « الله أكبر » .

* * *